الكنيسة القبطية في القرن العشرين

البابا مكاريوس الثالث

البطريرك الرابع عشر بعد المائة

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(١٩٤٤م - ١٩٤٥م)

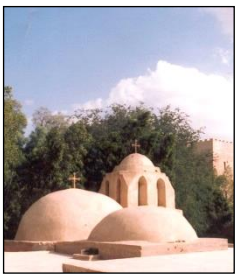

«وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت ١٦: ١٨)

- ٢ -

ما زلنا مع البابا مكاريوس الثالث، وقد قدَّمنا في الحلقة السابقة رسالته الرعوية التي كتبها عند اعتلائه السدَّة المرقسية، وقد ظهر فيها أسلوبه الروحي الرفيع الموصوف باقتباساته من الكتاب المقدَّس، بعضها عن قصد وبعضها دون أن يقصد، فهذه من سمات الإنسان العاكف على قراءة الكلمة أن يصير أسلوبه دون أن يقصد مستوحًى كله من كلمة الله. وكمثال آخر لهذا الأسلوب الروحي الرفيع نقدِّم الآن رسالته الرعوية التي أصدرها بمناسبة الصوم الكبير عام ١٩٤٥م. وهذا بعض مما جاء فيه:

[... أرجو أن يكون صومكم صومًا حقيقيًّا ترجعون فيه إلى نفوسكم، وتمتحنون فيه حياتكم، وتُسلِّمون فيه قلوبكم لربكم، ليعمل فيها بنعمته، ليُطهِّرها من نقائصها، ويُجددها في ذهنكم، حتى تختبروا إرادة الله الصالحة المرضية في حياتكم.

ليكن صومكم فرصة صالحة لتصفية خصوماتكم، وصفحكم عن سيئات إخوتكم، وتوطيد روح المحبة المسيحية بينكم. إن كان على أحد شكوى؛ فكما غفر لكم المسيح، هكذا أنتم. وكونوا حارين في صومكم، عابدين الرب، مواظبين على الصلاة، عاكفين على قراءة كلمة الله.

واحذروا من أن ينتهي الصوم قبل أن تكونوا صفيتم الحساب بين الله وبين ضمائركم، ثم تقدَّمتم للسر المقدَّس تقطعون به العهد بين الله وبينكم لتعيشوا

بالتعقُّل والبر والتقوى في العالم الحاضر. منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح.

وأنتم، أيها الكهنة المؤتمنون، ارعوا رعية الله التي بينكم نُظَّارًا لا عن اضطرار، بل بالاختيار، ولا لربح قبيح، بل بنشاط، ولا كمن يسود على الأنصبة، بل صائرين أمثلة للرعية.

لقد اؤتمنتم على الوكالة، فكونوا في وكالتكم أمناء مخلصين. افتقدوا قطيع المسيح، وكونوا ساهرين وحريصين.

اطلبوا المريض لتصلُّوا له وتواسوه، وافتقدوا الحزين لتعزوه، واهتموا بالفقير لتطعموه وتكسوه، واسعوا وراء الضال لترشدوه وتردوه.

ولا تسمحوا أن تنتهي فترة الصوم دون أن تأتوا بالكثيرين إلى الأحضان الأبوية، وتقودونهم إلى التناول من المائدة السماوية، بعد أن تكونوا قد هديتموهم إلى معرفة الله الحقيقية، والحياة الصالحة المرضية...].

سلسلة من الآلام

على الرغم من منهجه الروحي الرفيع الذي يظهر من رسائله التي قدَّمناها، فقد كانت حياة هذا البطريرك سلسلة من الآلام، فقد أمضى قداسته ثُلث هذه المدة بالأديرة الشرقية على أثر الخلافات التي دارت بينه وبين المجلس الملي، كما سنذكر.

لمحة مختصرة عن نشأة المجالس الملية

تعود نشأة المجلس الملي الأول بعد نياحة البابا ديمتريوس الثاني (البابا ١١١)، حين تولى الأنبا مرقس القائم مقام البطريركية لحين رسامة بطريرك جديد، ولكنه بقى لمدة ما يقرب من خمس سنوات، وأثناء هذه الفترة جمع بعضًا من أبنائه الأقباط المخلصين ليشاركوه في إدارة الكنيسة. وفي سنة ١٨٧٣ طلب هؤلاء الأعضاء من نيافة الأنبا مرقس تشكيل هيئة رسمية منهم تعترف بهم الحكومة. وشجعهم الأنبا مرقس وصدَّقت الحكومة بالموافقة، فكان المجلس الملي الأول.

وبعد تنصيب البابا كيرلس الخامس بقليل بدأت بوادر الشقاق بين رئاسة البطريركية وبين المجلس بسبب تنازع الاختصاصات بينهما. ثم ما لبث أن انحل المجلس. وفي سنة ١٨٨٣ تم تشكيل المجلس الملي الثاني برئاسة بطرس باشا غالي، ولكن حدث خلاف بين البابا والمجلس بسبب أوقاف الأديرة، فصار المجلس في حكم المنحل للمرة الثانية. وحاول كل من الطرفَين لاستمالة الخديوي توفيق إليه، الذي كان موافقًا للمجلس، ولكنه لم يرغب في إيجاد وقيعة بين البطريرك وشعبه. وحاول بطرس غالي الموائمة بين البابا وأعضاء المجلس ولكنه لم يوفق. وأصبح الصراع علنيًا وعلى صفحات الجرائد...وفي ١٨٩١ اجتمع المجلس الملي وبعض الإكليروس وقرروا نفي الأب البطريرك لدير البراموس والأنبا يؤانس معاونه لدير الأنبا بولا، وتعيين الأنبا أثناسيوس أسقف صنبو وديروط وكيلًا للبطريركية مكان البابا كيرلس الخامس.

وما أن علم الشعب أن البابا سافر إلى منفاه، حتى اشتعلت القاهرة، وهجر الأقباط كنائسهم، واختفت الاحتفالات بالأعياد، ورفضوا الصلاة مع الأسقف المُعيَّن. لقد كان الأقباط يحبون باباهم كعهدهم دائمًا مع الجالس على الكرسي المرقسي.

وعاد البابا إلى كرسيه في سنة ١٨٩٣، بعد أن قضى في دير البراموس ستة أشهر، واستُقبل استقبالًا يليق به من كافة طوائف الشعب، وكرَّمه الخديوي. وقام البابا بعمل محبة، فحلَّ الأنبا أثناسيوس من حرمه، وبعدها بفتره رقاه مطرانًا، ثم زار أعضاء المجلس في منازلهم. ولكن بعدها تعطل عمل المجلس زمانًا طويلًا، إلى أن تم تشكيل مجلسًا جديدًا سنة ١٩٠٦ (المجلس الرابع). وفي سنة ١٩١٢ انتُخب المجلس الخامس، والمجلس السادس في ١٩١٨، والسابع ١٩٢٣.

واستمرت العلاقة بين جذب وشد بين الآباء البطاركة ومعهم المجمع المقدس وبين المجلس الملي في تنازع على الاختصاصات حتى بعد نياحة البابا كيرلس الخامس وحبرية البابا يؤانس ال١٩ ثم البابا مكاريوس الثالث.

البابا مكاريوس والمجلس الملي

كان البابا مكاريوس رجلًا إصلاحيًا، فهو ما أن تولى مطرانية أسيوط حتى أطلق يد

المجلس الملي في إيبارشيته، وشكل لجنة مشتركة من الإكليروس والأراخنة لخدمة مشروعات الإيبارشية من إنشاء المدارس والملاجئ، وعهد للمجلس الملي بإدارتها. لذلك ما أن جلس الأنبا مكاريوس على السدة المرقسية حتى توقع الجميع أن ينتهي الصراع المرير بين الإكليروس والمجلس الملي.

فقد أصدر قداسته رسالتين أحدهما عن الرهبنة، والثانية يخاطب فيها زملاءه أعضاء المجمع المقدس.

في رسالته عن الرهبنة يقول:

[الرهبنة سيرة ملائكية طاهرة مقدسة، رفض بات للعالم، قناعة كلية مطلقة، خلطة بالملائكة وأرواح القديسين، اتصال بالله... لذلك كان من البديهي أن لا يسعى الراهب للاستكثار والادخار، لأن هذا ينافي مبدأه الذي انتهجه، وليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله].

وفي رسالته لزملائه أعضاء المجمع المقدس، يقول:

[لماذا كل هذا الاهتمام بأمر الأوقاف؟ أفلا يليق بنا أن نُقيم من يهتم بها، ونتفرغ نحن لخدمة الله، ولا نخدم موائد؟ ألسنا جميعنا رهبانًا، وبحكم الرهبنة قد تنازلنا عن ميراثنا الشرعي؟ وهل من الصواب أن يتخلى إنسان عمَّا له من الحق الشرعي في ميراث أبيه، ويتمسك بما لم يتركه له أبوه، مُدَّعيًا ملكيته...؟].

ورغم أن قرارات البابا تعد مكسبًا كبيرًا للمجلس الملي، إلا أنها ـ في نظرهم ـ ليست كافية، ولم تلقَ قبولًا، فهو كان يريد أن يُنازع البابا في كل سلطاته.

كذلك في نفس الوقت كان المطارنة والأساقفة مُستائين من تسليم أمور الكنيسة المالية في يد المجلس الملي، لذلك أصدروا بيانًا يهاجمون فيه الأب البطريرك، وكيف أنه سلَّم أوقاف الكنيسة للمجلس الملي دون استشارة المجمع المقدس، وأن جميع تصرفاته تُعتبر مخالفة لقوانين الكنيسة!!

وهكذا وجد البابا مكاريوس نفسه وحيدًا، المجلس يريد سلطة تامة مطلقة، والمجمع يعادي البابا لأنه منح المجلس سلطة لا يستحقها. وضاعت الأحلام الإصلاحية وسط

جو الخلافات. فالبابا لم يفهمه زملاؤه في المجمع المقدس، ولم يُقدِّره أبناؤه في المجلس الملي، وضاع صوته المنخفض الخفيف بين زحمة العواصف الهائجة. فاضطر البابا أن يذهب بعيدًا جدًا إلى الصحراء، إلى دير الأنبا بولا.

وزاره بعض الآباء المطارنة وكثير من أولاده ليقنعوه بالعودة إلى كرسيه وأن الجميع قد شعر بغلطته، سواء من المطارنة أو أعضاء المجلس الملي، وإنهم على استعداد تام لتنفيذ جميع أوامر غبطته.

ورجع البابا إلى القاهرة ودقت الأجراس وابتهج الجميع، وكانت الجموع تتدافع من أجل رؤيته والهتاف له والتعبير عن محبتهم له.

وفي آخر أيام البابا اعتكف في غرفته مُصليًا للرب أن ينقله من أرض الضيق. وفاضت روحه الطاهرة في ٣١ أغسطس ١٩٤٥ بعد أن قضى عامًا ونصف على كرسي مار مرقس منها ستة أشهر في دير الأنبا بولا.

المراجع

- صفحات من تاريخ الكنيسة في العصر الحديث، أمير نصر
- البابا مكاريوس الثالث، كنيسة مار مينا شبرا
- تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويروس بن المقفع ج ١٠، تحقيق عبد العزيز جمال الدين
- رسالة مار مينا الثامنة عشر في أعمال بطاركة وأساقفة القرن العشرين، دكتور مينا بديع عبد الملك
- أعداد مختلفة من مجلة الإيمان تصدرها جمعية الإيمان القبطية الأرثوذكسية بشبرا لسنة ١٩٤٥م.

(يتبع)